تشارلز

للكاتب الأمريكي: شيرلي جاكسون Shirley Jackson

حينما التحق ابني «لوري» بالروضة تنكّر لبناطيله القطنية الفضفاضة واستبدلها ببنطال من الجينز الأزرق. ذي حزام.

ظللت أرنو إليه وهو يغادر المنزل في أول صبحية له في الروضة بصحبة ابنة الجيران الأكبر منه سناً... ودار شريط حياتي أمام ناظري... أتأمل تفاصيله بعين الخيال فإذا بي أكتشف أني أودِّع حقبةً من حياتي لن تعود. تأملت صغيري ذا اللثغة المحببة والصوت البلبلي... ذلك الذي استحال فجأة إلى صبي محدد السمات والشخصية والذي انطلق غير عابئ بشيء دون أن يتوقف عند المنعطف ليلوح لي مودّعاً!

وعاد إلى البيت كما ذهب... صفق الباب فيما رمى على الأرض بقبعته قبل أن يصرخ متسائلاً: ـ أما من أحد بالمنزل؟!

وعلى الغداء خاطب أباه بوقاحة وزاد على ذلك بأن سكب حليب شقيقته الصغرى وأشار إلى أن مُدِّرسته قد نبهت أن علينا ألا نجعل الله عرضة لأيماننا ولو كنا صادقين.

ـ كيف كانت الدراسة اليوم ـ سألته بنمطية متناهية.

ـ لا بأس ـ قال.

ـ هل تعلمت شيئاً؟ سأله أبوه.

ونظر «لوري» إلى أبيه في برود قبل أن يجيب: «لم أتعلم شيئاً»!

ـ أي شيء! سألته ـ ما تعلمت أي شيء؟.

ـ صفع المدرس اليوم طالباً على كفله. قال «لوري» و هو يضع شيئاً من المربى والزبدة على شريحة خبز «لأنه كان مشاكساً وقحاً». أكمل وفوه يمتلئ بما فيه.

ـ ماذا فعل، من ذاك المشاغب؟ ـ سألته.

وفكر «لوري» مليّاً ثم قال: «تشارلز» ـ لقد كان وقحاً ضربته المعلمة ثم جعلته يقف في زاوية الفصل ـ كان غاية في الوقاحة!

ـ ماذا فعل ليستحق ذلك؟ سألته مجدّداً!

على أنه تناول قطعة «بسكويت» ثم انزلق عن كرسيه بخفة ومضى وسؤال أبيه لا يزال معلقاً في غياهب الانتظار دون جدوى:

ـ اسمع.. أيها الشاب... هيه... تمهل!

ولا حياة لمن تنادي!

حالما جمعتنا مائدة الطعام في اليوم التالي... شرع ـ «لوري» فور جلوسه في سرد ملاحظاته ومرئياته:

ـ «تشارلز» كان سيئاً اليوم أيضاً ـ وابتسم ابتسامةً عريضة قبل أن يقول:

ـ لقد ضرب «تشارلز» المعلمة اليوم.

ـ يا إلهي! لابد وأنه قد تلقى جزاء رادعاً ثانية!

ـ بكل تأكيد! قال «لوري» ـ انظر إلى أعلى ـ قال لأبيه فجأة

ـ ماذا؟ قال أبوه رافعاً نظره إلى أعلى.

ـ انظر إلى أسفل ـ قال «لوري» انظر إلى سبابتي...

يالك من مغفل ـ قال لأبيه في وقاحة واسترسل في ضحك عميق.

obeikandl.com

ـ لماذا ضرب «تشارلز» المعلمة؟ سألته بسرعة.

ـ لأنها حاولت إرغامه على استعمال الألوان الزيتية الحمراء! قال «لوري» ـ فيما كان يفضل استخدام الألوان الخضراء ولذا ضربها فما كان منها إلا أن ألهبت كفله ضرباً ثم جعلته يقف في زاوية الفصل وأمرت الجميع بعدم اللعب معه لكن أحداً لم ينفذ ذلك.

في اليوم الثالث ـ وكان يوم الأربعاء من الأسبوع الأول ـ أطلق «تشارلز» طرف الأرجوحة على رأس فتاة صغيرة فأدماه فاستشاطت المعلمة غضباً وحرمته من اللعب طوال وقت «الفسحة». أما يوم الخميس فقد عاد «تشارلز» إلى الوقوف في زاوية الفصل خلال درس قراءة القصص لأنه ظل يطرق الأرض بقدميه. وحينما شرع في إلقاء الطباشير يوم الجمعة حرم من مزايا العناية بالسبّورة!

وعندما حلّ السبت كان القلق قد استبدَّ بي فكاشفت زوجي:

ـ أتظن أن مرحلة الروضة تشكل حالة من عدم الاستقرار لـ «لوري»؟ ألم تلاحظ ما آل إليه من فظاظة وسوقية تعابير وألفاظ؟ ثم ألا ترى أن ذلك الملقب بـ «تشارلز» هو من رفاق السوء أخشى أن يكون له تأثير سيئ على «لوري».

ـ لا تثريب عليه ـ قال زوجي مطمئناً إياي ـ ما أكثر أشباه «تشارلز» في حياتنا سيقابل «لوري»! أمثاله إن عاجلاً أو آجلاً.

يوم الإثنين عاد «لوري» إلى البيت متأخراً.... وقد ملئت بالأخبار جعبته: ـ

ـ «تشارلز» ـ صرخ «لوري» بأعلى صوته قبل أن يصل إلى حيث كنت أنتظره بقلق ـ «تشارلز» كان مشاغباً اليوم.

ـ هلمّ إلى الداخل ـ قلت له ـ الغداء في انتظارك.

ـ أتدرين ما فعل «تشارلز» اليوم؟ ـ سأل بإلحاح وهو يتبعني ـ لقد ظل يصرخ إلى حد اضطر معه مدرس المرحلة الابتدائية لإيفاد طالب ليبلغ المعلمة بضرورة إسكاته ـ وهذا ما حدا بالمعلمة إلى إبقائه في الفصل بعد انتهاء اليوم الدراسي عقاباً له..

obeikandl.com

ـ ماذا فعل؟ سألته.

ـ لقد ظل قابعاً في مكانه... قال «لوري» ذلك ثم تسلق كرسيه وقال مخاطباً والده:

ـ مرحباً أبي.. يامنفضة الغبار العتيقة!

ـ لقد أجبر «تشارلز» على البقاء بعد انتهاء الحصص اليوم. ومكث معه بقية الطلبة للتندر عليه. قلت لزوجي.

ـ ماشكل «تشارلز» هذا؟ سأله أبوه ـ وما هو اسم عائلته؟

ـ إنه أكبر مني ـ وليس لديه ممسحة، كما وأنه ولا يرتدي معطفاً أبداً.

مساء الإثنين كان موعد عقد مجلس الآباء والمعلمين ولم يمنعني من حضور ذلك سوى مرض طفلتي ـ لكم كنت متلهفة للقاء والدة «تشارلز».

أما يوم الثلاثاء فقد فاجأنا «لوري» حينما قال:

ـ اليوم جاء شخص لزيارة معلمتنا.

ـ والدة «تشارلز» مافي ذلك شك ـ قلت وزوجي بصوت واحد.

ـ كلا! رد «لوري» بسخرية وازدراء ـ هو رجل جاء ليعلمنا كيف نؤدي التمرينات الرياضية.. جعلنا نلمس أصابع أقدامنا بأطراف أصابع أيدينا...انظرا! وانزلق من كرسيه فانحنى متمثلاً ذلك ـ وأتبع «لوري» ذلك باعتلاء كرسيه ثانية وقال وهو يلتقط شوكته لم يؤدِّ «تشارلز» تلك التمارين.

ـ لا بأس ـ قلت بلطف ـ فهو إذاً لم يرغب في أدائها؟

ـ كلا.. عاد تشارلز إلى المشاركة فحرم من المشاركة مع بقية التلاميذ.

ـ شاغب ثانيةً؟ سألته.

ـ لقد ركل صديق المعلمة! ـ قال «لوري» ـ حينما طلب منه أن يلمس أصابع قدميه.

ـ ماذا تظنهم فاعلين بـ «تشارلز»؟ سأله أبوه!

openkandil.com

وهز لوري منكبيه في شيء من اللامبالاة قبل أن يجيب:

ـ سيفصل من المدرسة فيما أظنّ:

يوما الأربعاء والخميس مرا كسابق الأيام. علا صراخ «تشارلز» في حصة قراءة القصص وضرب ولداً في بطنه فأبكاه. وأجبر على البقاء بعد نهاية اليوم الدراسي فمكث معه بقية الأولاد للفرجة والتندر؟

وبحلول الأسبوع الثالث من التحاق «لوري» بالروضة أصبح مدرسة مشاغبة متكاملة. حتى إن زوجي ـ حينما رآه يسحب عربة مليئةً بالتراب فتتسخ من جراء ذلك أرضية المطبخ ويَعْلَق مرفقه بسلك الهاتف ليقع ساحباً معه منفضة السجائر وآنية الزهور.. يرى زوجي كل ذلك فيردد في حرقة:

ـ يبدو تأثير «تشارلز» جليًّا.

في الأسبوع الثالث والرابع حدث «لتشارلز» ما يشبه الثورة الإصلاحية، تغير إلى الأحسن:

ـ لقد كان «تشارلز» منضبطاً اليوم حتى إن المعلمة قد أعطته تفاحة.

ـ ماذا؟ سألت في دهشة فيما تساءل زوجي بدوره:

ـ أتقصد «تشارلز» ذاته؟

ـ أجل ـ لقد قام بتوزيع الألوان الزيتية كما قام بجمع الكراسات لاحقاً فعينته المعلمة «عريفاً» للفصل.

ـ ماذا حدث؟ تساءلت غير مصدقة.

ـ عينته مساعداً لها... هذا كل ما في الأمر ـ قال هازًّا منكبيه.

ـ أيمكن أن يكون ما قاله عن «تشارلز» صحيحاً؟ سألت زوجي تلك الليلة أيمكن لشيء كهذا أن يحدث؟.

obeikandl.com

ـ ويأتيك بالأخبار من لن تزّود ـ رد ساخراً ـ لابد وأنه يخطط لعمل ما ويبدو أن زوجي كان واهماً إذ إن «تشارلز» كان غاية في الأدب والتعاون طيلة أسبوع كامل.. ولم يمكث أحد في المدرسة بعد انتهاء الحصص.

ـ سيعقد مجلس أولياء الأمور والمدرسين الأسبوع القادم ـ قلت لزوجي ذات مساء ـ وسأحرص على الالتقاء بوالدة «تشارلز».

ـ اسأليها عما حدث له فغيّره!

يوم الجمعة من الأسبوع ذاته عاد كل شيء إلى طبيعته.

ـ أتدرون ما فعل «تشارلز» اليوم؟ قال «لوري» في انفعال.

طلب من إحدى الصغيرات أن تردّد كلمة معينة مرتين بصوت مسموع فغسلت المعلمة فمها بالصابون! أما «تشارلز» فقد ضحك كثيراً.

ـ وماذا كانت تلك الكلمة ـ سأله أبوه في شيء من عدم الحكمة ـ فما كان من «لوري» إلا أن همس له بها.

ـ هل طلب «تشارلز» منها أن تقول ذلك؟

ـ لقد رددتها مرتين ـ قال «لوري» ـ امتثالاً لأمر «تشارلز».

ـ وماذا حدث «لتشارلز»؟

ـ لا شيء! لقد كان يوزع الألوان الزيتية.

يوم الإثنين ترك «تشارلز» الفتاة الصغيرة وردد الكلمة ذاتها ثلاث مرات أو أربعاً وكان فمه يغسل بالصابون في كل مرّة وزاد على ذلك بأن ألقى بالطباشير في نزق!

ـ حاولي أن تتحدثي إلى والدة «تشارلز» قال زوجي وأنا أودعه لحضور مجلس أولياء الأمور والمدرسين:

obeikandl.com

ـ أرجو أن أراها هناك ـ قلت له:

ـ ستأتي لاشك في ذلك. وهل يعقد اجتماع دون أم «تشارلز» قال مازحاً.

إبان الاجتماع ظللت أحدق في ملامح المحاضرات.. أستشرف محيا والدة «تشارلز» ولم أر وجهاً هدّه الإعياء والضنى.. لم تقف أم للاعتذار عما سببه ابنها من إزعاج وشغب لم يرد لـ «تشارلز» أي ذكر فواعجبي ـ قلت يومها لنفسي.

بعيد الاجتماع آثرت لقاء معلمة «لوري».. كانت تحمل صينية تحوي قدحاً من الشاي وقطعة من كعك الشوكولا فيما كنت أحمل صينية تحوي قدح شاي وقطعة من كعك حلوى الخطمي:

ـ كم أنا مشتاقة للقائك ـ قلت لها معرّفة بنفسي ـ أنا والدة «لوري».

ـ نحن جميعاً مهتمون «بلوري» ـ قالت.

ـ إنه مغرم بالروضة فهو يتحدث عنها طيلة الوقت.

ـ لقد واجهتنا بعض الصعوبات في التأقلم معه بادئ الأمر... قالت معلمته في هدوء ـ لكنه الآن قد تغير كثيراً ـ إنه عريف الفصل الآن.

وهو أكثر انضباطاً من ذي قبل إلا من تقلبات مزاجية بين الفينة والأخرى!

ـ من عادة «لوري» أن يتأقلم سريعاً ـ قلت ـ لابد وأنه متأثر «بتشارلز».

ـ «تشارلز»؟

ـ أجل ـ قلت ضاحكةً ـ لاريب وأنك مشغولة طوال الوقت بوجود «تشارلز» هنا.

ـ «تشارلز»؟ ـ أعادت التساؤل. ليس لدينا أحد بهذا الاسم هنا.

obeikandl.com